محمد صبحي العجيلي

صور من الحجاز

١٣٧٥ - ١٩٥٦

المطبعة العصرية - حلب

محمد صبحي العجيلي

صور من الحجاز

المطبعة العصرية ـ حلب



مقدمة

لم اكد اعود من الحجاز بعد تأدية فريضة الحج حتى تحدث
اليّ كثير من الاصدقاء طالبين اليّ نشر مذكراتي ومشاهداتي
في البلد الامين ، وكنت الى ذلك مشوقا ، ولكن شواغل الحياة
صرفتني عن الكتابة وحالت بيني وبين هذا الواجب . ومنْ لي
بالوقت الذي يمكنني من تسجيل ماسمعت ومارأيت من وقائع تتكلم
وخوالج تتجسم ، وانا لااجد الوقت الذي يمكنني من ان اؤدي
كثيراً من الواجبات اليومية على وجهها ؟ واخذت ارجئ الكتابة
من وقت الى آخر ، فلما كثر الالحاح عليّ في ذلك واتصل
واوسعني الاصدقاء عتباً وملامة ، وكان عتابهم آية من آيات الود
الصافي وحسن الآخاء ، لم يسعني الا ان اجيب الطالبين الى ماطلبوا
ولست ادري الى اي حد اتيح لي التوفيق في كتابة هذه الذكريات
ولست اخاف ان يتهمني بالتقصير انسان ، فانا اول من يلاحظ
هذا التقصير . ولو اني ضمنت مواتاة الزمان لوعدت الاصدقاء بان
لايمضي عليهم زمن طويل حتى يكون بين ايديهم كتاب جديد
يعالج النظام الاجتماعي على ضوء تعاليم الدين الاسلامي ليتيح لابناء

الوطن جميعاً ان يعيشوا على ارض الوطن وان يعيشوا من كدهم وجدهم وعملهم ، لا ان يعيش بعضهم على حساب بعض ولا ان يتكلف بعضهم الجد والكد والوان الحرمان لينعم بعضهم الآخر بالكسل والفراغ والمفسدة ، ولا ان يذوق بعضهم البؤس والجوع ليستمتع بعضهم الآخر بهذا النعيم الآثم البغيض الذي يبدد فيه المال ، وتمتهن فيه الكرامة وتبذل فيه الفضيلة لارضاء الخسيس من الغرائز والنزوات والشهوات .

ولا شك في ان الشعب الذي يحترم نفسه لا يتسامح في امر حكم نفسه ، بل يصر على ان يكون مرجع كل اموره الى ارادته ويصر على ان يكون رأي الفرد وارادة الفرد ومجهود الفرد وحرية الفرد اساساً ثابتاً للمجتمع لا يحد من ذلك كله الا حدّ الدستور وحد القانون .

وليس بي ان امضي في هذا الاستطراد الى ابعد من هذا الحد ، وانما اردت ان ابين ان الديمقراطية الصحيحة اذا فرضت المساواة بين ابناء الشعب في الحقوق والواجبات فهي لا تقبل بانشاء نظام الطبقات ولا بفرض الجهل على كثرة الشعب ، لان الجهل في

نفسه شر ، ولن يكون الشر علاجا للشر الا ان نتصور الشعب على انه كثرة ضخمة جاهلة غافلة ، وخاضعة خانعة تسودها طبقة ضئيلة جداً من هؤلاء الممتازين بالدم والنسب او بالثروة والغنى .

ونحن نريد لكافة الشعوب العربية طبيعة جديدة صارمة ، تنظر من خلالها الى الحياة فتستشعر ذاتها التاريخية المجيدة فتعدل في الحياة بقوانينها . وهذا شعور لاتحدثه الا طبيعة الاخلاق الاجتماعية القوية التي تنفر من الاستخذاء والاستجداء ، وتأبى الا ان تعلن كرامة الشعب ، وتصرف الاهتمام الى حقوق هذه الكرامة .

ولا جدال في ان كل مافي الشعوب العربية يريد التغيير ويطلب التجديد في العلم والزراعة والصناعة والاقتصاد والضرائب والاخلاق والقوانين . نريد ان تكون الصدور نقية من الاحقاد . والنفوس بريئة من الشهوات ، والميول نزيهة عن خسيس المطامع ، ونطالب لهذه الشعوب المساواة في الحق والواجب والمشاركة في الغنم والغرم والميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الامد فيه عائق من نسب او حسب او ثروة . ويجب ان تظهر الاخلاق دائماً

في العمل المنتج الصامت المفيد لاان تظهر دائماً في الكلام الفارغ والتضليل ، ولابد في هذه الحال من الاسترشاد في الاعمال بالعقل الرزين ، والمنطق المتين ، كما لابد من استلهام الشرف والوطنية والنأي عن كل مظنات الخطأ والاسفاف في كل مرفق من مرافق الحياة ، وتذكر اغلاط الماضي واستيحاء هداه وعبره ، والافادة من هذه التجارب الخطره التي مرت بها الامم افادة تتناول نظم المجتمع في الصميم وتربط الحياة العملية العامة بالحياة العلمية والفكرية للجيل الجديد .

وليس احق من شباب البلاد ـ وقد طلع الفجر وانفجر الضوء ـ بان يغسلوا قلوبهم بنوره ، وينقوا ضمائرهم بطهوره ، ويشيعوا معانيه في صدورهم ، ويسلطوه على اوكار الظلام والضعف والجهل والفقر ويقتلوا به الجراثيم التي زرعها الاستعمار الذي يحاول غل اليد وشل الارادة وسلب الثقة بالقدرة والاعتماد على النفس ، ويحاول ان يقتل في الشعوب العربية التفكير، ويميت فيها الضمير ليفكر الشباب فيها تابعين ، ويعملوا مقلدين ،ويعيشوا متواكلين ويسعوا مضطربين وبذلك تظل قواهم مجهولة لاتكشف ، وعللهم

مدفونة لاتعرف ، فاذا توخوا وجوه الاصلاح الداخلي ببرنامج جديد يساير الزمن ، بل يسبق الحاضر الى ماينبغي ان يقوم عليه المستقبل ، وبذلوا في سبيله النقود والجهود والتضحية جرت الشعوب العربية من سبل التقدم في طريق المجد الى ابعد الغايات واستطاعت بالهمة ان تخلق الامة ، وان تبلغ القمة ، وان تقيم البناء في نجوم السماء .

وكم كنت احب ، وما اكثر مايحب الانسان ، ان يتيح الله لي من سعة الوقت وفراغ البال والنشاط مايمكنني من المضي في هذا البحث على هذا الاساس حتى اتمه ، ولكن التوفيق بيد الله يمن به على من يشاء. واحاول الآن ان اقدم بعض الحقائق والصور مما رأيت وشاهدت جهد النظرة العاجلة ومبلغ هذه الايام المعدودات التي قضيتها لتأدية فريضة الحج ، ومقدار ماوعت الذاكرة دون الاستعانة بالمذكرات وعلى قدر مايواتيني البيان وتأذن لي المشاغل. ولعلي ان اوفق في البلوغ الى ماقصدت في هذه الصور الخاطفة من خدمة الاسلام وخدمة الحق وخدمة التاريخ .

محمد صبحي العيلي

اصبح الحج فريضة عين لاتحول عن ادائها في هذه الايام عقبة ، ولايسوغ في تركها معذرة . فانت تستطيع بالمال اليسير وفي الزمن القصير ان تحج في يسر وسهولة بالطائرات التي هيأت الوسائل، ويسرت المسافات وقصرت المدد. وهذه شركة الخطوط الجوية السورية(الكرنك) تتعهدلك بطائراتها المريحة ان تحملك وتغذيك في الجو تحت علم دولتك ، ورعاية مواطنيك، وان تجعل من اختراق الاجواء آية المسرات ، فلا تكابد وعث الجو ومشقة السفر ، ولا تقاسي بُعد الشقة وطول الغربة . فماذا تشكو من سفر تقدره بالساعات لا الايام والشهور ، ثم لا يمسك فيه ظمأ ولا جوع ولا حر ولا قر ولا خوف ؟

والحق ان الامد بين حلب ـ جدة ، وبين جدة ـ المدينة المنورة قصير ، وان السفر بالطائرة لذيذ ، وانه أمن لاخطر فيه ، او لايكاد يوجد فيه شيء من الخطر ، وان الانسان ليس عليه الا ان يركب الطائرة ويستسلم لما فيها من راحة وتسلية حتى ينقضي السفر في يسر وسرعة وطمأنينة ولا سيما اذا كان لايخشى الدوار

ولايتعرض لشره . ولكني اعترف باني وجدت شعوراً خفياً جداً حين اقلعت بنا الطائرة من مطار حلب في تمام الساعة السادسة من صباح الاربعاء اول ذي الحجة اربع وسبعين وثلثمائة والف من الهجرة (عشرين من تموز ١٩٥٥) – ينبئ الانسان وهو بين السماء والارض ، بانه ضئيل لايكاد يذكر ، وبان حياته شيئ اوهن من نسج العنكبوت ، لاقدرة له على مقاومة الاحداث الطارئة في الجو . وهذا الشعور وحــــده يملك عليك سمعك ونفسك ، ويضطرك الى ان تفكر في نفسك وتقيسها الى هذا الكون الواسع الذي يتجلّى الخالق في جمال خليقته وجلالها في مشاهد لاينتهي اولها الى آخر ، فتشعر شعوراً واضحاً جداً بان اسباب الحياة ضعيفة واهية ، وبان اقل شيئ يستطيع ان يحطم هذه الطائرة التي تقلك وان يقطع كل مابينك وبين النجاة من سبب فتصبح نسياً منسياً كأنك لم تكن قط . غير ان المؤمن الذي يعتقد ان خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالرحمة فيعني به ، ويحفظه من الطوارئ ويعصمه من الاحداث ويرعاه في كل لحظة ، يرى نفسه شيئاً مذكوراً يستحق هذه العناية المقدسة ، مـــع ان في هذا الكون مالايقاس الانسان اليه عظمة وجلالا

. اعدت الطائرة لاربعة وعشرين راكباً بمقاعد تريح المسافر صاحياً وتمكنه من الاغفاء حتى يغلبه النوم ، فكنت ترى بعضهم يهتف في نشـــوة روحية عميقة : لبيك اللهم لبيك . . . وبعضهم مستغرقا في ادعيته وصلاته ، وآخرين صامتين لايبدون حراكا ، شاخصين الى نوافذ الطائرة في ذهول ، وما كنت باقل من هؤلاء الحجاج شعوراً بالغبطة والابتهاج . ولزمت مقعدي في رهبة وخشوع وتسليم ، ودقات قلبي تثب في قوة وعنف . بينما يردد لساني في صوت خافت : لبيك اللهم لبيك . . لقد تجردنا من المخيط من الثياب ومن الزينة والنعومة والتطرية ، وخرجنا في ثياب الاحرام نساكا في استغراق روحي عميق ، ميممين شطر المسجد الحرام ،قبلة الشعوب الاسلامية التي تستعيض عن المادة بالايمان المطلق ، الايمان الذي يخفف عنا عذاب الضمير ، حيث تتنفس الانسانية التي خنقتها علامات الحدود ، وسيد ومسود ، وعبد ومعبود ، وتحيا في بيت الله الحرام حيث لا كبير ولا صغير ولا امير ولا حقير ولا غني ولا فقير ، وانما يجتمع الناس على اختلاف السنتهم والوانهم في صعيـــد واحد ، لباسهم واحد ، يتوجهون الى رب واحد ، ويؤمنون بنبي واحد ، ويدينون بدين

واحد : ويصيحون بلسان واحد : لبيك اللهم لبيك . . فتطمئن قلوبنا الى ذكر الله ، وتجري على شفاهنا آيات الكتاب الكريم .

بلغنا مطار جدة بعد سفر خمس ساعات، وما اقرب هذا سفراً وايسره ! وكان في المطار حشد كبير من الحمالين ومراقبي جوازات السفر ، وفريق من موظفي الجمرك ، يلتقطونك في هرج ومرج ويفتشون حقيبتك وملابسك في غير رفق ولا لين، وتتضافر القوى منذ اللحظة التي تطأ اقدامك فيها الارض المقدسة على امتهانك واهمالك وتأخيرك وحملك على الانتظار بكلمات واشارات ونظرات والفاظ جارحة حتى ليصعب عليك فهم هذا الموقف وتعليله ، لان الامم العربية والاسلامية تغطرم اليوم بروح جديدة، وتحفزها آمال واماني مشتركة ، وتجمع بينها جميعاً صلات التاريخ والاجيال والعلاقات نحو هذه الامم الشقيقة يجب ان تقوم على اعتبارات معنوية سامية ترتفع فوق كل الاعتبارات المادية . كما يجب ان يذكر الى جانب هذا دائماً ان الحجاز يضطلع بتبعات خاصة نحو العرب والاسلام . فاليه تتجه انظار الامم الاسلامية لتتعاون معه في حماية التراث الاسلامي المشترك ، وفي تضامن الحجاز مع الامم الاسلامية في صوره الممكنة قوة لايستهان بها ، وهذا المركز الخاص الذي

يتبوأه بين الامم الاسلامية يحتم عليه ان يكون قوة في حسن المعاملة والتفاهم وتوثيق العلاقات مع هذه الامم الشقيقة التي تلتف حوله وتحبوه بعطفها واحترامها وتقديرها. فهل لنا ان نؤمل ان يتجه الى تقدير هذه العوامل والاعتبارات الخطيره ؟ . هذا اقل ماتوجبه الروابط الدينية والتاريخية من التواصل والتعاطف والمجاملة لخير العروبة والاسلام. وان الذي كتب ان تكون بلاد اهل الحجاز مهبط الوحي هو وحده القادر على ان يجعلهم اهلاً لرعاية العهد وحفظ الجميل وان يزدادوا من الاحسان الى مئات الالوف من المسلمين الذين هجروا خفض العيش الى مشقة الاسفار وغربة الديار ، ليحملوا الى سدة الخالق العظيم آمالهم وآلامهم يستغفرون ويتضرعون ويسترحمون ، ولينعموا بالسجود للحي القيوم مالك الملك الذي خلقنا وخلقهم ، صاحب الامر الذي اذا اراد شيئاً فانما يقول له كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون .

ركبنا احدى السيارات الضخام ذات المقاعد المتسعة ، فانطلقت بنا الى مدينة الحجاج في طريق معبدة ، ونحن نهتف خلال الطريق : لبيك اللهم لبيك . . . ودخلت سيارتنا المدينة المذكورة التي تقع على مقربة من مرفأ جدة ، وهي محددة بجدران

مديدة ، وتشبه من وجوه كثيرة مضافات اللاجئين الفلسطينيين، فوجدناها تموج بالوافدين عليها من سائر اقطار الدنيا ، تغص بهم طرقاتها وشوارعها ، ويتصاعد منها صخب داوٍ اختلطت فيه كافة لغات الشرق من كل جنس وامة ، فاعادت الى ذهني المكدود بابل باسواقها وشعوبها . ومما يذكر مع الاسف العميق ان مئات الالوف من الحجاج لا تتيسر لهم مقاصدهم ، ولا تكفل راحتهم ، وسل تلك الابنية القذرة التي يحشدون فيها بغير حساب . ومن النادر ان تجد من يتقدم لمعاونتك او ارشادك لمعرفة مكان او غيره بشيء من التطوع والرقة التي تأنسها في بلادنا ، وكثيراً ما تجاب بهز الاكتاف والرؤوس وامثالها من الاجابات الصامتة التي تكون مقرونة بالمن واحياناً بالتكلف والجفاء !

وحب المال خلة مشهورة في الحجاز ، وهي تذهب الى حد الجشع المثير ، وانك لتلمس هذا الشر في كل المعاملات ، وتشعر بان روح المادة والاستغلال تطغى على كل شيء وكل اعتبار ، ومن ثم كان شغف الكسب باي الوسائل ، وكان تجلّي الاثرة وانعدام روح المعاونة والمروءة الانسانية في معظم الطبقات التي تحتك بها وانك لتلاحظ ان اخلاق هذه الطبقات الدنيا وآدابها فاسدة ،

وبنوع خاص طبقة العمال والخدم والبائعين وسائقي السيـارات ، وقد انتهينا الى هذه الحقائق والملاحظات بالتجارب والمشاهدة والدرس دون مبالغة او اغراق .

يتسلمك وكيل المطوف حين وصولك الى مدينة الحجاج ليقبض منك اولاً وقبل كل شيء ما يعادل خمساً وثمانين ليرة سورية من الريالات السعودية كرسوم دخولية ونفقات انتقال الى مكة المكرمة او سمها ما شئت من الاسماء . وهذا امر حتم لابدان تتخذ له الاهبة ، ثم يضعك في اتوبوس من هذه الاتوبوسات التي تسع واحدتها خمسة واربعين راكباً لاتنطلق من قواعدها الى مكة المكرمة الاعندما يأتي المساء لئلا توردك الحرارة الشديدة موارد الهلاك .

والمسافة بين جدة ومكة نحو / ٧٥ / كيلو . وفي المغرب تحرك موكب الحجاج شطر مكة المكرمة ، مهوى افئدة المسلمين ، وعاصمة مجتمعهم الروحي ، وصادف أن رافقني في السيارة طوائف من جنسيات مختلفة وبلاد متباينة ، من الهند وجاوا وسومطرا والصين وشواطىء افريقيا وتركيا ويوغسلافيا والعراق وايران وافغانستان واندنوسيا وروسيـا وتونس والجزائر ومراكش ، وكان يخيل الى كل من يرانا اننا في برج بابل ، فكل منا يتكلم بلغة لا يفهمها الآخر . ولكن لباس الاحرام جعلنـا سواسية ، وتجلت عظمة

الاسلام في عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرؤوس والفت بين قلوبنا جامعة الاسلام فجعلتنا كافراد اسرة واحدة ، ولاغرابة في ذلك فالعالم الاسلامي على اختلاف اممه ، امة واحدة الفتها مئات السنين على معنى واحد واسلوب واحد ، واورثها التاريخ حضارة واحدة . وهذا لعمر الحق ائتلاف ينبغي ان يجنب الاختلاف ، وتقارب هو اسعد ماتحظى به الامم في هذا العصر القلق المضطرب ، وكنا لانقطع خلال الطريق عن الهتاف بلسان واحد : لبيك اللهم لبيك . . .

ودخلت سيارتنا مكة في منتصف الليل . ولله مكة ! مايستقر بها فكر زائرها حتى يحلق في ارجاء العصور ، وثنايا التاريخ امداً بعيداً . لقد انبثق في نفسي شعور خفي وانا اطأ الارض المقدسة التي وطأتها قدما الرسول من قبل ، واتجهت بتفكيري الى حادثات التاريخ التي تزخر فيها ذكرى الماضي ، الى سيد العالم كيف مر بهذه البطاح مهاجراً الى الله ، تاركاً بلده التي نشأ فيها ، وقومه الذين ربى بينهم ، وكيف جاء حتى وقف على الحزورة فنظر الى مكة وقال : « انك لاحب بلاد الله الى الله ، وانك لاحب بلاد الله الي . ولولا ان اهلك اخرجوني منك ماخرجت » ثم

يستقبل الصحراء الهائلة ، ليس معه الا الصديق الاعظم يتلفت كلما سار ليتزود بنظرة من مكة حتى غابت وراء الافق الفسيح فانطلقا يؤمان الغار الذي بدأت منه انوار الديانة التي هذبت العقل الانساني ، وارشدته الى اقوم سبل الحق والخير والجمال، وانطلقت منه الموجة التي نسفت صروح العتاة والطغاة والظالمين وقام وحده في وجه العالم كله يصرع باطله بقوة الحق ، ويبدد جهالته بنورا الاسلام ويهدي ضلالته بهدي القرآن !

وكأن الله اختار ذلك المكان خصيصاً ليكون مهداً للديانات من عهد ابراهيم . وتذكرك الحرارة الشديدة في مكة دائماً بقدرة الاخلاص على الاحتمال ، ومنظر اولئك الذين يجيئون من كل فج عميق تاركين بلادهم واوطانهم ليحجوا الى ذلك الوادي غير ذي الزرع ليطّوفوا بالبيت العتيق فيلقي في الافئدة روع نداء الدين والايمان والواجب . وكأن الله قد اختار تلك البقعة لينمّي هذا الاحساس بالواجب والتضحية في سبيله في نفوس عباده المخلصين .

قادني الدليل الى دار الدكتور حامد هرساني ، رئيس المطوفين في (المسفلة) والدكتور هرساني لطيف المجاملة، يرحب

بالحجاج مع اخيه السيد عبد الرحمن على طريقـة العرب ، ويغمرهم بكل صنوف الكرم وحسن الوفادة ،وتلك لعمري احدى مفاخر الاسلام التي تتجلّى عظمتهـا في مناحي الحياة تسمو بها فوق المطامع الدنيوية والمنافع المادية . والدكتور هرساني فوق انه من سراة مكة شاب مثقف ثقافة عربية ناضجة ، وقد تخرج من الجامعـــة المصرية ، وله رفاق واصدقاء يلتفون حوله كأسراب الطيور تخفق قلوبهم بالحب له.وتنطلق السنتهم بالثناء عليه لانصرافه الى دراسة مظالم الحجاج وفضه مشاكلهم بما اثر عنه من حنكة ودراية وخبرة باحوال الناس وقدرة على اجتذاب القلوب.لا يعرف ان احداً قد مسه الضر او اشتـدت عليه الحال الا اعانه واغاثه وانجده بعين تفيض رقة وعطفاً وقلب يفيض كرماً وحناناً .

يممت شطر بيت الله الحرام ومعي مطوفي ، فشـاهدت في طرق مكة التي لاتنام ، ولا تفتر عنها الاقدام زرافات متمهلة او مسرعة ، ذاكرة او صامتة تؤم البيت الحرام ، قد استوى ليلها ونهارها،وعشيها وابكارها فأحسست كأنما نضوت عن جسدي ثوبا كان يحتويني فما القيته حتى تواثبت نفسي منطلقة على سجيتها في عالم غير محدود لا تعرفه ولا تنكره . ان تراث الاجيـال ليتحرك في دمي

الساعة فيذكرني لكأن لي في كل مكان ذكرى قريبة . ان قوة من وراء التاريخ تربطني الى هذا المكان ، وتستوقفني عند ذاك الاثر ، وتقف بي في هذا الحي . ان هنا قبساً من روح اعرفها ترف حولي ، ونفحة من عطر اتشممها تلامس روحي . وان لي هنا خفقة قلب ، وان لي هناك لدمعة عين ، فما اشك ان لي تاريخاً قبل تاريخي في هذا المكان ، وان الماضي الذي كان قبل ان اكون هو ارث في دمي تحدر اليّ في اصلاب اسلافي ذكريات لا تكاد تبين الا خفقات في القلب وزفرات في الفؤاد .

وشعرت وانا اجتاز اروقة الحرم واستقبله لاول مرة بغبطة وبنوع من الخشوع والاجلال ، وكان من اسمى اماني ان اطرف حوله . هذا هو المسجد الحرام الذي قال الله تعالى فيه : (ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً) وقال تعالى : (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقال تعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك

قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) . وان الانسان ليشعر بالمهابة والاجلال يعجز مهما تكن قوته او فصاحته عن ان يعطيك منه صورة صحيحة او مقاربة ، يشعر بهذه المهابة وهذا الاجلال لان هذه الرقعة الصغيرة من الارض كانت مصدر النور الذي انبعث في الدنيا حين لم تكن الدنيا كلها ـ ولاتزال ـ الا ميداناً تصطرع فيه المطامع والمنافع والعصبيات اقبح صراع واشنعه . ولقد تغير الزمان ودارت الايام دوراتها المختلفة ،وعبثت الخطوب والاهوال بالعالم ، وظل هذا المكان المقدس ـ وسيظل ـ مصدر النور للعالم كله . هذا هو المسجد الحرام . فهل تقع العين فيه الاّ على مصل خاشع . وطائف بالكعبة واله ، وقارئ تنطق بضراعته الآيات ، وداع يرسل قلبه في كلمات ؟ انظر الى هؤلاء المؤمنين من كافة الاجناس والالوان الذين يطوفون متجردين من لبس المحيط والمخيط وهم حفاة حاسرين يضرعون ويتوسلون ويتمسحون باحجار الكعبة ، ويحاولون في زحام كيوم الحشر لثم الحجر الاسود ويغمسون ايديهم في ماء زمزم ويشربون منه ، وفيهم المكفوف وفيهم المقعد وفيهم من اصابته ضروب الشلل ،وفيهم من انهكتهم

العلل ، وفيهم الاصحاء اقبلوا يتضرعون لابنائهم وبناتهم، وآبائهم وامهاتهم ، واخوانهم واخواتهم ، كل هؤلاء يطوفون باستمرار آناء الليل واطراف النهار ولا يكترثون للفح الشمس القاتل المميت .

كم قلب محزون حمل الى هذا الجناب شكواه ؟وفؤاد معذب بث في هذه الساحة نجواه ، وكم آثم حط في هذا الفناء الاوزار ليمحقها بالتوبة والاستغفار ، وكم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها ، واخرى ظالمة تعترف بجناياتها . كل ضارع على هذا الباب، يهاب هذا العظم ، ويرجو هذا الكرم . اشتات من الشكران والشكوى والدعاء والنجوى . ماأروع هذا مشهداً !صلاة ودعاء وطواف وبكاء يسيل بها الاصباح والامساء . وعظمة الله تغشى هذا المشهد ، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد فتؤلف بين القلوب في ذات الله ، وتؤاخي بين الشعوب في اصل الحق .

وبناء الحرم ضخم فخم يقع في الاحياء والاسواق القديمة ، وتشرف ابوابه الاربعين على دروب ضيقة وابنية عتيقة ويتوسط الحرم الكعبة في صحن فسيح مكشوف يتسع لالوف المصلين تحيط به اروقة من جوانبه الاربعة ، تدور في سقوفها مراوح

كهربائية ليلا ونهاراً، وارضها مفروشة بالسجاد . ويتوضأ المصلون من صنابير ركبت في انابيب ممددة في حجرة (زمزم) وما كدت اطوف بالكعبة حتى طالعتني طائفة من قبائل نجد بشعور منفوشة ، وبشرة سمراء داكنة ، وقد لبسوا الخرق في اصلابهم ، يقفزون ويصيحون حتى لتحسبهم اذا ساروا اوطافوا اضعاف اضعافهم ، وقد تجاوزا الثلاثين الفاً ، ولكن دأبهم جعل الواحد منهم عشرة اشخاص ، لاتكاد تراه في الحرم حتى تشهده في السعي بين الصفا والمروة كأنه من عالم الارواح . هم كالموج المتلاطم ، يتزاحمون ويتناحرون بالمناكب والصدور والرؤوس والاقدام ، متماسكين بالايدي رجالاً ونساءً لايعرفون الخشوع ، ولايرجون لله وقاراً .

ويقع المسعى في سوق تجاري مسقوف تقوم على جوانبه حوانيت الاقمشة والخردوات والمرطبات ، شبيه بسوق الحميدية بدمشق ، وملايين المسلمين يسعون فيـــه وهم يهرولون ويلبون ويذكرون الله في ثياب الاحرام . والسعي في السوق بين هذه الجموع المزدحمة على الحوانيت شاق ومتعب ، لايشعر الساعي انه في عباده تفرغ لها نفسه ، ويتم لها توجهه . وما احوج الحرم الى

ان تزحزح عنه الابنية والدكاكين والبيوت القديمة المتهالكة التي تحيط به ، ويدور حوله مهيع واسع يظلله الشجر ، بحيث تصبح الكعبة والحرم والمسعى في قلب هذه الساحة المدورة ناطقة بارض النبوءات وعظمة الاسلام .

امضينا في مكة تسعة ايام تعرفنا فيها الى طوائف من جنسيات مختلفة وبلاد متباينة ، فالحج خير وسيلة للتعارف والالفة . وانت لاتستطيع ان تتقي هذا الشعور اللذيذ الذي يحدث في نفسك حين تجد من حولك ناساً يتعرفون اليك فيعطفون عليك ويرقون لك ويؤثرونك بالمودة والالطاف ، فتشعر بانك لست وحيداً او غريباً اوقات السفر ، وبان هناك قلوباً قد تخفق مع قلبك ، ونفوساً قد تشاركك في الالم وتشاركك في اللذة . ولست اعرف شعوراً فوق هذا الشعور لذة وحسن موقع في النفس . والحق ان حظي من هذا الشعور عظيم ، وان اغتباطي به واستعذابي اياه قد رافقاني من مكة الى المدينة فحمدت مرافقة عائلتين لبنانيتين تعرفت اليهما في مكة ، وانست اليهما والى صحبتهما التي امتلأت رفقاً وودًّا وايثاراً ، فانستنا صحبة الاستاذين مصطفى دريان ونور الباش وحرميهما وفيقة وامينة وما لمسناه من شمائلهما الرفيعة الدمثة ، ما

لقيناه في مكة من مظاهر الخشونة والرياءوسوء المعاملة وكل ما هنالك من مظاهر الانحلال . ونحن لاندعي الوصول الى اعماق المسائل والشؤون في مكة ، وانما ندون حقائق وملاحظات انتهينا اليها بالتجارب والمشاهدة والدرس . كذلك لانكاد نعرف شيئاً عن مكة قبل بناء بيت الله الحرام فيها ، وكل مانعرفه عنها قبل هذا التاريخ ، ان القبائل التجارية التي تجوب البلادالعربية كانت تنزل بخيامها فيها ثم ترحل عنها . ولما بني البيت الحرام ورفع قواعده ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وتفجر الماء من بئر زمزم ، وشرع الله الحج في ملة ابراهيم ، اقبل العرب على الاقامة فيها وبنوا بيوتهم ونمت الحياة وازدهر العمران فيها . فمكة عاصمة القرون والاجيال العربية المتعاقبة ، وهذا التعاقب في العصور ظاهر الاثر في شوارعها وفي احيائها . انها مدينة شاسعة الارجاء،ولكنهاتبدو كأنهاعدة مدنمتباينةشيدتفيعصور وظروف مختلفة . فمن احياء قديمة تغص بالدروب الضيقة والمباني العتيقة ، وتحمل اسماء لاشك في قدمها ، ومن احياء جديدة في شوارعها . ومن احياء مزجت بين القديموالجديد . وهذاالتباين في التخطيط يجعل منها مدينةقليلةالتجانسوالتناسق والمشاريع

الاصلاحية تسير فيها بخطى بطيئة جداً ، وان ما تم فيها منذ عشرات السنين لا يعدو بداية ضئيلة ، ولا تكاد تشعر بانها تعيش في القرن العشرين ، فاهلها يتكلفون الوان المشقة ، ويستجدون ضروب الاحسان ليشبعوا بعد جـــوع ، ويعيشون في غمر من الجهل ، وتعوزهم المدارس الكافية للبنين والبنات ، وطرقاتهم غير معبدة فالمشي فيها شاق متعب مهلك للاحذية ، وللسيارات فيها ضجيج شديد وانت لابد من ان تسمع في الحين بعد الحين جلجلة الاجراس في اعناق الحمير . . .

صحبنا الدكتور هرساني في سيارته ليهيء لنا اسباب التمتع بين محطة الاذاعة اللاسلكية التي دعته لتسجيل حديث طبي فيها عن (ضربة الشمس) وبين المشاهد المقدسة والاحياء المستجدة فلما فرغنا من تفقد دار الاذاعة وآلاتها واجهزتها دعينا الى مرتقى فيها يشرف على مكة كلها ، فترى منه واضحة المعالم جلية الرسوم ، ثم غادرنا الدار الى السيارة التي انطلقت بنا تجوب شوارع مستجدة يبدو عليها المظهر الصحراوي في ندرة النبت ، وان حاول اصحاب القصور (الفيللات) استنبات بعض الاشجار القليلة على جوانب قصورهم ، وحرص الدكتور على زيارة « الفيللا » الحديثة التي

يملكها في ظاهر مكة ، وقد بنيت بافتنان بارع ، ويحفها الصمت العميق من سائر نواحيها ، وبعد ان طفنا بحجراتها وممراتهاقفلنا عائدين من حيث قدمنا ، ودرجت بنا السيارة تطوي المسالك في احياء قديمة ، واراض غير مستوية تقوم على جوانبها البيوت والحوانيت العتيقة التي تدل على بؤس سببه عدم وجود انتاج قومي وفقدان ابواب العمل يتجلّى في جيوش المتسولين والمتشردين والعاجزين والعاطلين الذين يؤلفون ٩٠ ٪ من اهل البلاد . وفي هذه المشاكل مجال للخدمات الاجتماعية الكبيرة لعلاج الحال وتلافي الاسباب الباعثة عليها ، وتنظيم البر الوقائي والبر العلاجي تنظيماً يصون هذه الارواح المضيعة والقوى التي لاتنتفع بها البلاد بل قد تكون مصدر فساد وضرر بحيث تتطلب درساً اجتماعياً دقيقاً لعلاجها وتقليلها لاالاكتفاء في حلها بقطع الايدي . . . وفيهم جهل اغلق عليهم ابواب الفكر ، وحرمهم نور العلم . واقعدهم عن وسائل العمل الناجح في الحياة . ومشاكل التعليم الصحيح ، وتربية الامة التربية التي تجعل من ابنائها اعضاء نافعين في الوطن ، مشاكل تتطلب الجهود الصادقة ،وعدم الركون في حلها على الجهود الرسمية وحدها . وفيهم ضعف صحي جعلهم

فريسة لامراض متوطنة كثيرة واضعف حيويتهم ونشاطهم . وفي مجال العمل الوقائي والعلاجي متسع للجهود الانسانية النافعة وبيوتهم ومدنهم وشوارعهم ومأكلهم وملبسهم وكل شؤونهم بحاجة الى جهود منظمة تتولاها بالاصلاح والتهذيب وحيثما وجهت بصرك لقيت مشكلة اجتماعية تتطلب الحل والتنظيم .

لست اقول ان وسائل الحج بلغت من الراحة والنظام والنظافة والمعيشة الغاية التي نرجوها ، ولا ازعم ان الاماكن الدينية في الحال التي يتمناها مفكرو المسلمين ، فلايزال المسلمون يرجون للحج نظاماً وعمراناً لايذكر معه مايسره الله في السنين الاخيرة من الامن والسلام . لايزال مفكرو المسلمين يطمعون في ان يروا في الحج آثار التعاون الاسلامي ، وبذل المال في سبيل الله حتى تكون احوال الاراضي المقدسة مكافئة لمكانتها عند المسلمين ، ومصورة عناية المسلمين بها ، وتقديسهم اياها . لايزال الحجاج يطمعون في تخفيض معيار العيش ، واخماد تلك النزعة الجشعة التي تبدو في كل صنوف التعامل ، فاذا لم تتخذ الوسائل لتأمين راحتهم ، وتمكينهم من اداء فرائض الدين في يسر ونظافة وطمأنينة ، واذا لم يشعر الحجاج بان الرقة وحسن المعاملة والامانة

تسود جميع الطبقات التي يحتكون بها ، فان اللذين زاروا الحجاز واكتووا بنار هذا الغلاء ، وتحملوا الكلمات والاهانات والاخلاق السيئة يترددون كثيراً في العودة اليها .

صحيح ان الاراضي المقدسة تحظى منا باكبر عناية ،وان مكة والمدينة تجذب منا اكبر عدد من الحجاج والزائرين ، وما يزال اسم مكة والمدينة يثير في نفوسنا سحراً لايقاوم ، بل ان كثيراً من المسلمين الذين لم يروا مكة والمدينة يعرفونها معرفة عقلية وروحية شاملة : يعرفونها من الكتب والصحف والمجلات والتاريخ وتربطهم بهاتين المدينتين روابط دينية قوية ، وما تزال اول امنية للمسلم ان يرى مكة والمدينة ، وقد حظيت الاراضي المقدسة من العربية بكتب ورسائل عديدة تفيض اعجاباً . على انه يلوح لنا ان التغني بكل ما في الحياة الحجازية الدينية تذكيه الدعاية المأجورة ، ويطبعه الاغراق والمبالغة ، وان شيئاً من الانصاف والملاحظة المجردة ، وطرح المؤثرات والاعتبارات الدينية الخاصة مما يعاون على عرض صور اصدق وادق من تلك الصور الوردية والالوان الخلابة . وربما كان منشأ فساد الاخلاق والآداب ان الشعب يعيش في نفس الحالة التي يعيش عليها منذ مئات السنين في غمر

من الجهل ، ولا يصيب من النفقات العامة قسطاً يذكر سواء في التعليم او الصحة او المنشآت والمرافق العامة .

صحيح ان الملايين من الدولارات تنفق على استيراد الآلات الميكانيكية والكهربائية والسيارات والبرادات ووسائل الراحة والرفاهية ، ولكن بذلك تتسرب الثروة العامة من البلاد دون ان يحظى الشعب بنصيب حسن من الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي ترمي الى رفع مستواه الصحي والعقلي ومنسوب عيشه . ففي تحقيق المشاريع الاصلاحية العامة ثروة حقيقية للبلاد وزيادة في قواها المنتجة الاقتصادية والاجتماعية . وربما كانت هذه البلاد تأخرت عن ركب الحضارة بفعل ظروف الحياة الاقتصادية التي ارتفعت لها حاجات الناس ارتفاعا فاحشاً شديداً فنحن نعلم علم اليقين بان هذه البلاد غير صناعية ، بل اعتقد ، واظن انني اعتقد بحق ، انها ليست الا سوقاً تستهلك فيها منتوجات البلاد الاوربية والامريكية بوجه خاص . وهذه الحقيقة وحدها كافية لان تظهرك على ان السوق في البلاد المذكورة مستهلكة ، اي انها قوة مستنفدة لا قوة منتجة وعلم مايترتب على ذلك عند الله والتبعة في ذلك تقع على اصحاب رءوس الاموال وعلى القادرين

على ادارة الاعمال من المتعلمين . فاذا انتدبت جماعات من اهل الكفايات لجمع رءوس الاموال لتأسيس مصانع ودعت الناس للمساهمة فيها على القواعد الاقتصادية المقررة حاصلة على الضمانات التي يراها الناس كافية فان رءوس الاموال تنصب اليهامن جميع الطبقات ، وتغطي الطلبات . وكلما اثمر مصنع ثمرات محسوسة حصل الاقبال على غيره . فلايمضي طويل زمن حتى يصبح في الحجاز مايكفي حاجة البلاد من هذه المصانع ، ويضمن حياة مئات الالوف من الحجازيين الذين لايجدون مرتزقاً ولا عملاً .
اما ان يقنع الانسان بدوره الصغير ، دور الحيوان الآكل المتناسل الذي لايحس بان الانسانية تتعاقب وتتوالى،ويكمل بعضها بعضاً فلا يطعم جائعاً ولايكسي عارياً ولا يعلم جاهلاً ولا يمنع مرضاً ولا يرد حرباً .

وانك لتلاحظ ان التسهيلات التي يتشدقون بها في هذه البلاد لم تقدم لاي حاج سواء في الانتقال عبر اراضيها او في مكاتب مطاراتها ، او في دور المطوفين . وما زالت البلاد تعتمد على جاذبيتها الدينية القديمة وهي واثقة باكبار الناس اياها وتقديسهم لها مابقيت الكعبة في مكة،وما قام في المدينة حرم الرسول(صلعم) .

غير ان البلاد الحجازية تخدع اليوم في قيمة هذا الجاذبية وسينحط موسم الحج في السنين القادمة انحطاطاً عظيما ، ولن تعج بمئات الالوف كما كانت في السنة الحالية ، واهم عامل في هذا التحول هو سوء تربية الطبقات التي يحتك الحجاج بها ، وفقدان نسبة مئوية غير قليلة من نقد البلاد العربية في الاسواق الحجازية ، والغلاء الفاحش الذي يغمر كل شيء ، في الفندق ودور المطوفين وفي الاسواق والتنقل والمأكل والمشرب وكل ما يتصل بالحياة اليومية تشعر بوطأة هذا الغلاء المرهق ، وتشعر كأن النقد يذوب بين يديك سراعاً . ولنضرب امثلة مادية : يستطيع الحاج ان يجد مسكناً في دار من دور المطوفين التي اعدت لتكون فنادق في موسم الحج باجر يومي يتراوح بين ٣٠ - ٤٠ ليرة سورية ، ولكنها تفتقر الى وسائل الراحة والنظافة والماء بوجه خاص . وتكلف وجبة طعام الصباح التي تتألف من كأس حليب ونصف رغيف فقط زهاء ليرة سورية ، وثمن رغيف الخبز ثلاثة قروش سعودية (الريال السعودي ٢٢ قرشاً ويساوي ٩٥ قرشاً سورياً) وقد ارتفع ثمنه في ايام العيد الى نصف ريال . وثمن اقة العنب ستة ريالات ، وثمن اقة البندورة اربعة ريالات ، وثمن اقة الموز

ثلاثة ريالات ، وثمن الفاصولياء لايقل عن ريالين ، وثمن الجبسة الواحدة يتراوح بين ٤ ـ ٦ ريالات وتباع حسب حجمها لاوزنها واما ثمن السوائل المثلجة التي لا يُستغنى عنها فليس بالبخس ولا بالقليل وهذه السوائل لاتنقع غلة ولا تشفي صدى وانما تزيدظما الى ظمأ وتحرقاً الى تحرق فكأس الماء المثلج لايقل عن ثلاثة قروش، وزجاجة الماء المثلجة لاتقل عن ربع ريال ، والزجاجة الواحدة من الكوكا كولا والبيبسي كولا لاتقل عن نصف ريال ، وقد ارتفع ثمنها في ايام العيد بمنى الي ريال ، ولوح الجليد الواحد يساوي عشرة ريالات وقد ارتفع ثمنه في ايام العيد الى عشرين ريالاً . وربما كان في ظروف حياة الطبقات العاملة مايفسر هذا الغلاء ، ولكن كيف نلتمس المعاذير لهذا الغلاء الرسمي في اجور البرقيات ، فالبرقية التي تتضمن ثلاث كلمات فقط باستثناء العنوان لم تكلفنا في منى والمدينة اقل من تسعة ريالات او يزيد ، مع ان موارد البلاد ليست من الضآلة لتطغى روح الماده والاستغلال حتى على اجور البرقيات . وهل كثرة الحجاج المطلقة الا من الذين يحتاجون الى الحساب والتدقيق في الحساب ، وهل من الانصاف الرسمي ان يشتد غلاء الحياة وان ترتفع حاجات الناس هذا الارتفاع

الفاحش ثم يزعمون ان التسهيلات في موسم الحج متوفرة دائمـــاً ؟

واما التنقل بين مكة وجدة فلست احدثك عن سيارات (التاكسي) لانه ترف لايطيقه حتى الاغنياء ، واذكر انني دفعت ثلاث مرات خمسة عشر ريالاً اجرة تكسي لقطع مسافـة تقدر بمثل المسافة الممتدة بين سراي الحكومة والسبيل بحلب نحو خمسة كيلومترات . اما المسافة بين مكة ـ العمرة فنحو /١٨/ كيلو وتساوي المسافة بين حلب ـ المسلمية فلا تقطعها السيارة باقل من ثمانين ريالاً سعودياً ، وقد وجدت حيالي مرة سيارة اجرة واطل عليّ السائق من عرشه واخذ يقلب فيّ عينيه هنيهة ثم همهم : /٨٠/ ريالاً للعمرة! وقلت له في دهشة ٨٠ ريالاً ؟ثق ياصديقي اننا لسنا من الامريكان ! فاعاد الرجل جملته وهو يتعالى على عرشه ، ولم يشأ ان يزيد حرفاً ثم بدت منه اشارة اشعرتنا بان صديقنا دكتاتوري المنزع ، لايقبل مساومة فيما يصدر من احكام ! ولا اغـــلو اذا قلت ان النظافة في مكة تحتاج الى كثير من النفقة ، والاستحمام فيها وفي منى ترف يصعب على الفقراء الاكثار منه في موسم الحج. وفي دور المطوفين المتوسطة قد يكتفى بغرفة حمام في طبقات الدار

كلها ، اما الغرف ذات الحمام الخاص فترف رفيع لا يُسمع به الا في الفندق الارستقراطي الوحيد في مـــكة والاقامة اليومية فيه لاتكلف اقل من مائة ليرة سورية !

هذه امثلة وملاحظات نعني بها الحـاج المتوسط ، ولا نعني بها اولئك الذين يلجأون الى بعض الدور التي يتكدس في الغرفة الواحدة منها عشرات الحجاج مع امتعتهم وحقائبهم ، ويتناولون طعامهم على قارعة الطريق ، فهؤلاء حقاً يستطيعون ان يستمرئوا مكرهين نوعاً من العيش لايستسيغه الحاج المتوسط مهما كان من تواضعه وقناعته وزهده . ولاتنس الى جانب هذا الغلاء المرهق الخشونة في المعاملة ، وابـــتزاز المال باي وسيلة حتى ولولم تقدم اية خدمة . والشره خلة بارزة للطبقات التي تحتك بها في كل لحظة ونعني بها طبقات الخدم والسقاة والبائعين ، وروح الجشع تبدو في كل مكان . هذا الى المفاجآت السيئة في الحساب . ففي معظم الاحيان تدفع اكثر مما تتوقع لاسباب وابواب غير معقولة ولكن لامفر من اجابتها اذا اردت ان تحفظ كرامتك في الاراضي المقدسة . وتلاحظ في مكة بنوع خاص ، ان الامانة ليست متوفرة دائماً ، وربما كان اول واشهر التجارب التي يتعرض لها الحـاج

هي الطواف حول الحـــــرم الشريف . فاذا لم تحرص على مالك ونقودك اثناء الطواف ، فويل لك من النشالين في بيت الله الحرام وهذه تجربة اعتقد ان كل حاج مستجد يلقـاها في مكة ، وقد بلوتها مرة - لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين - وسجلتهـا في مخفر البوايس في المنطقة الثالثة في يوم الجمعة ، الثالث من ذي الحجة (الثاني والعشرين من شهر تموز ١٩٥٥) على سبيل الذكرى والتاريخ !

غادرنا مكة الى عرفات في مساء الخميس التاسع من ذي الحجة (٢٨ تموز ١٩٥٥) واللقاء في جبل عرفات لهو الغرض الاساسي تقريباً للحج ، فالحجاج الذين يفدون الى جده ومكة متفرقين يجتمعون كلهم في يوم واحد ، ويحشرون في صعيد واحد . يقفون سواسية امام الله حاسري الرؤوس ، خاشعي النفوس ، يرفعون اليه دعوات واحدة في كلمات واحدة، تصعّدبها الانفاس المضطرمة المؤمنة تصعد البخور من مجامر الطيب . يقف المسلمون في هذا الحشر الدنيوي حيث وقف صاحب الرسالة ، وحواريو النبوة وخلفاء الدعوة ، وامراء العرب، وملوك الاسلام، وملايين الحجيج من ارجاء الارض ومن مختلف الالوان والالسن ، فيمزجون

الذكر بالذكر، ويصلون النظر بالفكر ، ويذكرون في هذه البقعة المحدودة وفي هذه الساعة الموعودة، كيف نزل الدين على الدنيا، وتجلّى الله للانسان، وانزل آخر مادة من الدستور الخالد (اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا) وقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً مودعاً واعلن (حقوق الانسان) وواجباته كاملة : الحرية والعدالة والمساواة . بيد ان شعور الغبطة الذي قد يأنسه المسلم في عرفات لايلبث ان يمازجه شعور بالمرارة والاسف حين لايجد مواضع للطهارة والوضوء والصلاة ميسرة على وجه يليق بهذه البقعة الطاهرة ، وحين يجد انه لم تتخذ الوسائل التي تحفظ النظام وتمنع الزحام وحوادث الصدام في الطريق الى المزدلفة ومنى عندما تضيق بالسيارات .

تحرك موكب الحجاج بعد المغرب شطر (المزدلفة) ومنها الى منى والمسافة بينهما تطويها السيارات في الاحوال العادية بالسير الوسط في نصف ساعة ، ولكن السيارات لم تستطع في هذا اليوم ان تقطعها باقل من خمس ساعات .ودخلت سيارتنا منى قبل منتصف الليل بقليل وهي غاصة بمضاربها التي زخرت بالحجيج ، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الاقطار . هذه خيام مجتمعة ،وجماعات

مختلطة ، وبينها تعارف وتزاور . وهذا المحصَّب حيث العقبات الثلاث التي ترمي فيها الجمرات . وهذا مسجد الخيف ، وهو مسجد برىّ معطل من الزينة وفراشه الحصباء : بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء ، تتجلّى فيه طبيعة البداوة ، وقد اتخذت ظهور هذه الجدران خلاء للحاجة . . . وهي حال يستنكرها المسلم الغيور على دينه المعني باقامة شعائره بهذه البقاع المطهرة .
وما اسعد المسلم يوم يرى في مكة ومنى والمدينة فنادق يأوي اليها فيجد راحته وطعامه وشرابه كما يشتهي ، ويجد في عرفات ومنى مواضع للوضوء والصلاة تمكنه من اقامة الشعيرة على خير الوجوه وما احوج منى الى اصلاح مذبحها وحفظ لحوم الاضاحي وجلودها لينتفع بها او بأثمانها الفقراء طوال العام ، ثم تعبئة ماء زمزم في اوان ترسل الى الاقطار الاسلامية ، وقد اثبت البحث انه ماء نافع مرىء فضلاً عما له في نفوس المسلمين من حرمة ، ثم سوق الماء الى دور مكة ومني والمدينة ومساجدها ، وما احوج البلاد كلها الى ايجاد المدارس الكافية فيها واشادة الاعمال الكهربائية الضخمة . وشق الطرق وتعبيدها وتسهيل سبل المواصلات ، وانشاء المستشفيات الكافية وتجهيزها بجميع المعدات ، وجلب

الخبراء الزراعيين واستيراد الآلات الزراعية الحديثة واستثمار الاراضي لتشغيل العاطلين عن العمل واللذين يشكلون ٩٠ بالمائة من اهل البلاد ، والغاء رسوم الفواكه والخضروات التي تردمن الاقطار العربية لعدم توفرها في البلاد . وايجاد ملاجئ للعجزة والمتسولين والمعتوهين وقلب الفيافي المقفرة والبراري المجدبة ، الى قرى مزدهرة دانية القطوف ، في كل منها مصحة ، وقاعة للمحاضرات ، وحوض للسباحة وناد ...لمنازلة السل والامراض الخبيثة والقضاء على الجراثيم قبل ان تتوالد فيدفعوا عن الناس خوف المرض ثم خوف الموت ، وامور غير هذه كثيرة . هذا كله جدير بعناية المسلمين وتعاونهم وبذلهم من اموالهم وافكارهم واعمالهم ، ولن يؤدوا واجبهم ويعربوا عن اهتمامهم بدينهم ، ويبرأوا من التقصير حتى يحققوا هذا كله بل اكثر منه ، ويتعاونوا على خطة معينة خالصة لوجه الله يعالجون بها من امور الحجاز ما يجعله صورة لحضارة المسلمين وتآلفهم وتعاونهم . ومَنْ اولى من المسلمين بالتعاون والتآخي ودينهم دين الاخوة العامة ، والتعاون على البر والخير والتقوى ، والله يهيئ للمسلمين من امرهم رشداً .

وفي صباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من ذي الحجة (الثاني من شهر آب ١٩٥٥) غادرنا منى عائدين الى مكة والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ماوعى من احاديث التاريخ عن تراث الاسلام المجيد . ولم نلبث في مكة الا لنسير عنها بعد الغروب الى العمرة فانطلقنا نقطع زهاء ثمانية عشر كيلو في طرق وعرة ترفع سيارتنا وتخفضها ، وترجنا داخلها وتهزنا ، كأننا فيران في مصيدة ترجها يد صائد منتقم .. حتى اصابنا الدوار ونال منا الكلال ، فما بلغنا العمرة ووقفت السيارة حتى خرجنا منها نتأرجح ونتلوى ، وبعد ان ادينا شعائر العمرة قفلنا عائدين الى مكة لطواف الوداع ، وبذلك ادينا بحمد الله المناسك على الوجه المطلوب ، وغادرنا مكة بعد منتصف الليل فبلغنا جدة في الساعة الرابعة صباحاً ودخلنا قاعة المطار لننال قسطنا من العذاب والاعنات ، ووقفنا صفاً كصف المسجونين كل ينتظر دوره وحسابه ، والاسف يملأ جوانحنا لتضافر القوى في مكتب المطار على امتهان الحاج ذي الكرامة ، وسل اخواننا المصريين عن الكلمات والاهانات التي وجهت اليهم من طبقة المستخدمين في مكتب المطار بغير حساب لاعتراضهم على تسيير معاملات السفر

بالاهواء والشهوات ، ولم يتيسر لنا ركوب الطائرة الا بعد ثلاث ساعات انتظار فرضها (عنود)مكتب المطار بقصدالتوبةوالاستغفار للدلالة على حسن الجوار ، وايثبت الاعنات بالجار !

وتعالت الطائرة بنافي اطباق الجو الى المدينةالمنورة،وتراءت لنا بين الفينة والفينة السهول المترامية والبحر الواسع الذي يمتد تحتنا الى مسافات شاسعة تعجز انظارنا عن تحديدها ، واخذت تتوالى مرائى القمم المتنافسة المتسامية في جلالها وهولها،واختلاف الوانها وارتفاعها واستفالها وما يشغل العين والفكر من صورها والطائرة تحلق في الجو صعداً فوقها . والمسافة بين جدة والمدينة زهاء / ٤٢٥ / كيلو كانت تقطعها قوافل الابل في اربعة عشر يوماً وتقطعها السيارات الكبيرة اليوم بالسير الوسط في عشر ساعات ويستطيع المستعجل ان يطويها بالسيارات الصغيرة في ثماني ساعات ، وبالطائرات في ساعة وثلاثين دقيقة . ومازالت الطائرة تحلق حتى اقبلت على مطار المدينة فهبطت فيه . وفي المطار محطة اعدت للاستراحة والانتظار فدرجنا نحوها واكلنا من عنبها واسترحنا فيها قليلا، حتى اقبلت سيارة المطار فانطلقت بنا تطوي الطريق وتخترق الاراضي مارة بجبل احد ، وهو شمالي المدينة

قريب منها، وبلغنا المدينة فنزلنا داراً تشرف على مسجد الرسول (صلعم) ولم نضيع هذه الفرصة الثمينة فسعينا للتمتع بزيارته عصر الاربعاء الخامس عشر من ذي الحجة (الثالث من شهر آب ١٩٥٥) فرأينا افواجاً من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصلٍ وخاشع وداع وباك ومطيف بالضريح المقدس ، ولهذا الحشر دويّ يملأ القلب خشوعاً ورهبة ، ولم نتمالك ان نجثو خاشعين لله عز وجل ، وان نؤدي ماتيسر من الصلاة مغتبطين لذكر الله ورسوله في هذا الحرم النبوي العظيم . وان اعظم مايثير الخيال في ارجاء هذا المسجد الرائع هو الذكريات التاريخية العظيمة التي كان مسرحاً لها والتي اسبغت عليه طابعاً خاصاً من الروعة والخلود وجدير ان نطيل الوقوف عنده ، فهو اجمل جوامع الدنيا في رأيي واكثرها اخاذة في قلب الداخل وعينه ، مايزال الطرف يتقلب بين جدرانه وقبابه واعمدته حتى اذا بهره الجمال والجلال استراح الى مرأى الروضة النبوية الشريفة ، وقد بذلت الصناعة وسعها في هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه ، وبالغت في زخرفة سقفه وقبابه بالنقوش المذهبة والتكوينات الهندسية الرائعة ، وتدلت منها سلاسل تحمل ثريات البللور وقناديل الزجاج من

انفس هدايا الملوك والسلاطين ، ولاءمت فيه يد الاتقان بالذهب والنحاس والنجف والبللور والفت بين الوانها تأليفـــاً متآلقاً مرضياً . وعلى الجدران آيات قرآنية واحاديث نبوية من اجمل ما كتبه الخطاطون ، وعلى الابواب والنوافذ ستائر مزركشة من اغلى انواع المخمل والحرير ، وارضه مبسوط فوقها افخر انواع السجاد النظيف تغوص فيها الاقدام .

كان المسجد حين بناه الرسول (صلعم) سبعين ذراعاً في ستين وجدرانه من اللبن وسقفه من الجريد ، وعمده جذوع النخـل ثم وسعه فجعله مائة ذراع في مثلها ، ثم توالى التوسيع والتعمير في ايام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم حتى بناه السلطان عبد المجيد العثماني بشكله الحاضر ، واستغرقت عمارته ١٢ سنة بين سنة ١٢٦٥ و ١٢٧٧ ولم يبق من الابنية القديمة الا قليلاً ، وحدوده القديمة معلمة بالعمد كما حددت الروضة النبوية بين القبر والمنبر ولا ينظر الانسان نظرة في هذا المسجد المبـارك الا وقعت على ذكرى كريمة من رسول الله واصحابه . فهناك سارية عائشة وسارية ابي لبابة الصحابي التي ربط نفسه بها وآلى الا يبرح حتى يتوب الله عليه ، وخوخة ابي بكـر . وحول المسجد مواقـع الدور

التاريخية : دار ابي بكر ودار عثمان وغيرهما . وتجد المسجد في بهجة النور والايمان ، يدوى بالمصلين والداعين والقارئين ، ولكن الواقف ازاء الحجرة النبوية لايرى من هذا الجمع احداً ولايحس من هذا الدوي همساً . لايرى الا هذا الجلال ، ولا يسمع الا هذا الوحي ، وانما هي وقفة يمّحي فيها الزمان والمكان فيتصل الازل بالابد والسماء بالارض . يالك بقعة كالكوكب المضيء تناله الاعين في لمحة وتحيط اشعته بالعوالم العظيمة ! يالك بقعة كمنبع النهر العظيم ، متدفق بالحياة ، فياض بالبركة مداد بالخير ، يحي الاجيال بعد الاجيال ، اترى هؤلاء المصلين لايفترون وهؤلاء المرتلين القرآن لايصمتون ، وهؤلاء الداعين لاينقطعون؟ اتسمع هذا الآذان وهذا السلام وما يحدث به المسلم اخاه ومايفضي به في علانيته ونجواه ؟ ليس فيما ترى الا انساني هداهم محمد ، وكلمات املاها محمد ، بل كل صوت يرتفع الى الله في اقطار الاسلام وكل عبارة في وضح النهار او جنح الظلام . وكل لسان يدعو الى الخير ، وكل يد تمتد بالبر ، وكل كلمة حق ودعوة صدق ، وكل نية محمودة وسعي مشكور فهنا منبعه ومن هذه البقعة وحيه بل كل نزعة في المسلمين الى سؤدد وكل طموح الى علاء ، وكل

سلطان فيهم قائم بالحق وكل شرع نافذ بالعدل ، وكل دعوة الى حرية ، وثورة على ظلم وانتصار للحق ، وتمرد على الباطل ، كل ذلك شعاع من هذا النور ، او قطرة من هذا الينبوع ! موقف يتضائل في جلاله كل جلال ، ويصغر في جماله كل جمال ، لحات تطهر فيها النفس من ارجاسها ، وتبرأ من اهوائها ، وتسمو على شهواتها ، وتخلص من اغلالها فتستمد الخير والحق والعلاء والتقوى والحب والسلام وتسع السماء والارض ، وكأنما تخلق خلقاً جديداً وتفتح في اعمالها صفحات جديدة . خسر من لم يطهره هذا الموقف . وخاب من لم ترفع نفسه هذه الساعة . هنا النفس المطهرة . هنا محمد بن عبد الله . هنا رسول الله . هنا خاتم النبيين .

تلاقينا في رحاب الروضة النبوية بالاساتذة المهندس احمد ابراهيم معوض من ابي كبير ـ الشرقية في مصر ومندوب دار اخبار اليوم ، وسليمان احمد سليمان الموظف في وزارة الصحة بالخرطوم ، وحسن محمد خليل الفيوم سكرتير الاتحاد العام لنقابات المخابز البلدية والافرنجية ، ومصطفى دريان مدير مدرسة دار المعارف الاهلية في بيروت وزميله نور الدين الباش، ونعمنا

باحاديثهم عن التشاور والتعاون على مايصلح شؤون الامم الاسلامية
واخذ مندوب اخبار اليوم في حديث طويل عن رجال الثورة في
مصر وموقف السودان من حركتهم ، ومصير العلاقات بين
القطرين الشقيقين ، وكان الاستاذ احمد سليمان ينتصر للواء محمد
نجيب في حماسة وقوة وانفعال ، وكان مندوب اخبار اليوم يرى
بان السودانين اشقاء لهم ، نشأوا على حبهم ، ولكنهم يأخذون
عليهم موقفهم من رجال الثورة اخذ الصديق الناصح، فقد اصيبت
آمالهم في اخ صميم او صديق حميم لاتطيب نفسه ان يسمّع به
ويذيع عيوبه :

قومي هم قتلوا اميم اخي   فاذا رميت يصيبني سهمي

فوقف يلتمس له المعاذير ، ويدعو الله ان يلهمه السداد ويهديه
سبيل الرشاد

وكان رأينا في تحقيق ماتصبو اليه الامة الاسلامية من الآمال
ليتسنى لها ان تعيد مجداً كاد يندثر يتلخص بان حياة الشعوب
في تضامن افرادها واتحادهم ، وفي ديننا الاسلامي ـ دستور
الحضارة الانسانية ـ الامثلة المتعددة على ان حياة الامة العربية
تحولت باتحادها من الضعف الى القوة ، وانتقلت من التفرقة الى

الوحدة ، واستبدلت بالتخاذل ائتلافا ، وبالجهل علماً ومدنية وارتفعت من اسفل دركات الشرك والالحاد الى اعلى درجات التوحيد والايمان. قال الله تعالى في كتابه العزيز: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ـ سورة آل عمران) (واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ـ سورة الانفال) (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ـ سورة الحجرات) (انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم ـ سورة الحجرات) وقال منقذنا الاعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخواناً) (لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) فليتق الله الذين يعملون على التفرقة ويسعون الى التجزئة فان في ذلك الخسران المبين . لماذا ترغم دمشق وعمان وبغداد والقاهرة وصنعاء وانقره وطهران وكابل وكل عاصمة عربية واسلامية على السجود تحت اقدام مكة والمدينة ؟ لماذا تنثر من تراب مكة والمدينة قبضات في اجواء العالم الاسلامي حتى تكتحل به كل عين ، ويتوضأ منه كل وجه وتمتلئ به كل رئة؟

لماذا كل هذا ؟ لاننا نريد ان تحيا الامة العربية المكونةمن ثمانين مليوناً هم في مركز الارض كما تحيا اي امة لتؤدي رسالتنا السامية في الحياة الحرة الكريمة بالحكمة والمحبة لا بالعنف والشدة وسفك الدماء ، ولن يعوقنا بعون الله عائق مهما كان ملففاً بالذهب والدولار والحديد والنار لاننا القوة التي اختارها الله لحمل رسالته الاخيرة وقوة الله لا تغلب .

ان حديث المدينة لا ينفد ، وحبها في القلوب لا يحد ، فقد جاء اهلها يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال عام واحد من دعوته ، البيعة التي تعرف ببيعة العقبة الاولى على الا يشركوا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله . ومما يدل على قيمة هذه البيعة ان النبي صلى الله عليه وسلم احتاج ان ينفذ الى يثرب من يقرئ المسلمين بها القرآن ويعلمهم ويثقفهم في الدين وكانت هذه فاتحة ميمونة لانتشار الاسلام في يثرب على صورة جدية وفي نطاق واسع ، ثم ان كثرة المسلمين فيها جعلتهم جماعة يجب فضلاً عن تثقيفهم في الدين تنظيم امورهم والنظر في مصالحهم واقامة علاقاتهم بغيرهم على قواعد مرضية ، وقد بدأ التشريع الاسلامي في يثرب ، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح.

وبدأ التعرض لتجارة قريش .

ويكفي للدلالة على ما كان لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى يثرب من قيمة في التاريخ الاسلامي انه لما اريد بعد ذلك تأريخ الحوادث اشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأ لهذا التاريخ . والواقع ان هذه الهجرة كانت هي الباب الذي فتحه الله لنشر الدين واعلاء شأنه ، والقضاء على الشرك والكفر واتاحت للمسلمين ان يكونوا امة . وان ينتظموا كما تنتظم الامم ، واكسبتهم مركزاً تسنى لهم بفضله ان يتحكموا في مكة اقتصادياً وحربياً ايضاً ، وقد انتهى الامر بالفعل بفتح مكة واعلاء كلمة الله وجعل من العرب امة لها في العالم مقام ،وفي حياته اثر !

ولكن ليس من اليسير تصوير مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين الاولين من مكة الى يثرب . لقد كان اول مظهر لهذه المشقة ان تأثروا بجو المدينة الوخم لاول قدومهم ، ونزولهم على الانصار في دورهم ، فاعتلّت صحتهم واصابتهم الحمى وعراهم داء الحنين الى وطنهم القديم ، حتى لقد كان بعضهم يهذي بذلك اذا اخذه دوار الحمى . روى البلاذري باسناده عن عائشة ام المؤمنين

رضي الله عنها انها قالت « لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن اشتد به مرضه ابو بكر وبلال وعامر بن فهيرة . فكان ابو بكر يقول في مرضه :

كل امرئ مصبح في اهله   والموت ادنى من شراك نعله

وكان بلال يقول :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة   بفخ وحولي اذخر وجليل
وهل أردت يوماً مياه مجنة   وهل تبدون لي شامة وطفيل

وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه   ان الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه   كالثور يحمى جلده بروقه

قال فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال « اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا مكة ، وبارك لنا في مدها وصاعها»

ومما يدل على شدة فقر المهاجرين لاول عهدهم بالمدينة ان الرسول (صلعم) عندما خرج بهم الى وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة دعا الله في رواية الواقدي فقال « اللهم انهم حفاة فاحملهم وعراة فاكسهم ، وجياع فاشبعهم ، وعالة فاغنهم من فضلك » .
من اجل تلك الفاقة كان المهاجرون في السنوات الاولى من

الهجرة عالة على الانصار .

صحيح ان الانصار اكرموا وفادتهم كل الاكرام، وواسوهم اتم المواساة ، ولكن تلك الحال ليس من السهل على كرام النفوس احتمالها . يروى البلاذري ان النبي (صلعم) عندما اراد قسمة غنائم بني النضير قال للانصار : « ليست لاخوانكم من المهاجرين اموال . فان شئتم قسمت هذه واموالكم بينكم وبينهم جميعاً ، وان شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من اموالنا ماشئت ، فنزلت (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال ابو بكر : جزاكم الله يامعشر الانصار خيراً ، فو الله مامثلنا ومثلكم الا كما قال الغنوي :

جزي الله عنا جعفراً حين ازلقت   بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يملونا ولو أن أمنا   تلاقى الذي يلقون منا لملت
فذو المال موفور و كل معصب   الى حجرات ادفأت وأظلت

من اجل تلك المشقة التي نالت المهاجرين الاولين في سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة الى الله ورسوله ، ومن اجلها جعل اولئك المهاجرين ارفع طبقات المسلمين درجة ، واجزلهم

مثوبة ، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم ، قال تعالى : (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيما كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا : الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغماً كثيراً وسعةً ، ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً)

وفي المدينة مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدها تاريخنا ، وحسبي ان اذكر ماشهدت في يوم واحد ، يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة (الخامس من شهر آب ١٩٥٥) : خرجنا الى جبل أحد . وهو شمالي المدينة ، قريب منها ، فمررنا بجبل سلع ، وسرنا حتى شهدنا مكان موقعة احد ، ورأينا قبر حمزه اسد الله رابضاً في العراء ، وعلى مقربة منه جدار يحيط بمدفن شهداء احد رضي الله عنهم . وتوجهنا بعد ذلك شطر الجنوب ، الى مسجد قباء اول مسجد اسس في الاسلام بناه الرسول صلى الله

عليه وسلم حينما هاجر من مكة فنزل في قباء على مقربة من المدينة
في بني عمرو بن عوف وهو المسجد الذي ذكر في القرآن (لمسجدٌ
اسسّ على التقوى من اول يوم احقّ ان تقوم فيه ، فيه رجالٌ
يحبون ان يتطهروا ، والله يحب المتطهرين) والمسجد كما يرى اليوم
حسن المنظر ، عالي الجدران تتجلّى فيه البساطة والنظافة ؛ وقد
توالى عليه التعمير حتى انتهى الى بنائه الحاضر . وعلى مقربة منه
بئر أريس التي سقط فيها خاتم النبي من يد عثمان بن عفان ايام خلافته
وهي بئر عميقة ماؤها عذب غزير صافٍ . وانتقلنا الى مسجد
القبلتين، فمسجد الخندق ، ثم قفلنا راجعين شطر المدينة ، وغايتنا
مقبرة البقيع . فأي مقبرة هذه التي يهواها الناس ؟ ولا يسألون
حين يهبطون المدينة عن اسواقها ومتاجرها، بل يستحثون الخطى
وغايتهم المقبرة التي تفوح منها رائحة الذكريات وتفجر في النفس
ينابيع التأمل والاستذكار ، فلا بد للزائر من شيءٍ اوشخص ينتزعه
من هواجس نفسه وخواطرها ، وقد كان الذي انتزعني دليلاً
يعرف المقبرة ويعرف لحودها ويحفظ حدودها ،فوجدت قبورها
لاتختلف اشكالها ولم ينقش على احجارها اسماء وتواريخ تدل على ان
تحتها اجساماً وتواريخ . . . . وهي عبارة عن حجارة صغيرة قد

صفت على وجه الارض كأحواض منتثرة لاتشبه القبور في شيء .

فتبعت الدليل وانا اسائل نفسي ماذا يستطيع ان يقول وقد تكلمت الاحجار والآثار ونطقت اللحود والانوار في كل ركن من اركان البقيع !

ايتها الانسانية المسكينة ! تشبثي بالفروق ، وتأنقي في الموت، وتأنقي في الحياة ، ثم انظري آخر الامر ماذا بقي في يديك ؟ الموتى جميعاً اصبح يرتزق بالتحدث عنهم دليل جاهل ، ويتسلى بالنظر الى آثارهم زائر عابر ، ولاتبقى ورائهم الا عبرة في عين وحسرة في قلب ، وعبرة لمن اراد ان يعتبر !

وكنت كلما وقفت باحد هذه اللحود ارتد خيالي الى ما قبل الف وثلثمائة واربع وسبعين سنة ، وتصورت العصر الاسلامي كله ماثلاً امام عيني بحوادثه ووقائعه الحافلة ، ومرت بذاكرتي اسماء رنانة روت بدمائها تلك الارض المقدسة ، وباعت انفسها في سبيل الله عن سخاء لتأسيس الرابطة الاسلامية التي جمعت بين قلوب المسلمين في انحاء العالم جمعاً انسانياً ، فجعلت العقيدة الروحية فوق الرابطة الجنسية ، وجعلت للانسانية مثلاً اعلى

بجانب حب الوطن فقالت انه من الايمان ، وحضت على الاخاء وحب البشرية . وقد انشأها النبي صلى الله عليه وسلم منذ شرع يجاهد بالمدينة فالتف حوله المهاجرون والانصار والمؤمنون من كل طبقات المجتمع ، ففيهم الرقيق امثال بلال ، والسادة الاعيان كعثمان بن عفان ، والابطال كخالد بن الوليد . وقد ولدت تلك الجامعة التي ربطت بين قلوب المسلمين في المدينة المنورة وهي التي اعانت على هزيمة المشركين بعدقتالهم وتأسيس الحضارة الاسلامية التي يفخر بها العالم .

جلنا في البقيع تسير افكارنا اكثر مما تسير ارجلنا ، وتتلفت قلوبنا اكثر مما تتلفت عيوننا ، فزرنا قبور سيدنا العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسن بن علي ، وزين العابدين ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم ، وسيداتنا ازواج وبنات النبي صلى الله عليه وسلم وشهداء احد والشهداء عند باب البقيع ، وسيدتنا حليمة السعدية ونافع ومالك صاحب المذهب ، وعقيل بن ابي طالب ، وسفيان بن الحارث . ثم انتقلنا الى الاحياء الداخلية في المدينة فزرنا قبر عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الذي وعت الجزيرة العربية قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر ابيه ، وهي قصة مثيرة

احيت ذكرى الذبيح الاول (اسماعيل بن ابراهيم) جد العرب. وكانت هذه القبور قبل الحكم الوهابي ذات قباب وجدر عالية ونقوش رائعة ، فلما جاء الوهابيون هدموا القباب وخربوا الجدر فلم يبق منها اليوم الا اطلال دارسة لاتكاد تبين ! وقد لاحظنا ونحن نجوز المدينة خلال هذه الزيارات ان كل مافيها من طبيعة ومناظر واشخاص يكاد ينطق بان المدينة ليست حجازية في طابعها وروحها ، وشعرنا في الايام الثلاثة التي امضيناها اننا في محيط ارقى خلالاً وتهذيباً من محيط مكة ، فالمدينة اوطيبة كما يسميها التاريخ القديم خفيفة الروح جميلة الموقع ، شوارعها نظيفة واهلها ينعمون بملاحة الوجه ونظافة الملبس ، ويزيد في سحرها ومتاع الاقامة فيها هوائها الجيد ومياهها الغزيرة وبساتينها الكثيرة واثمارها الجيدة وفاكهتها الطيبة ، ومافطر عليه اهلها من الادب الجم والشمائل الرقيقة ، وفي جميع طبقات المجتمع تسود الرقة والادب وحسن المعاملة والامانة ، ويلقى الغريب كل معاونة وتقدير واحترام ، ويعيش كثير من اهل المدينة على التجارة ، ويعول فقراؤهم على جدوى المسلمين . ولن يبر المسلمون دينهم ورسولهم وانفسهم حتى تسخو ايديهم بالمال وتجتمع عقولهم واعمالهم على

الاصلاح والتعاون على الخير والاجتماع على العمل الصالح الذي يجعل طيبة بلداً معموراً آهلاً منسق الدور والطرق موفور وسائل الصحة ، والعمل الصالح الذي يجعلها مباءة علم فتصير مقصد المسلمين من اقطار الارض ليدرسوا تاريخ الاسلام في مواقعه، وتحفزهم الى خير الاسلام والمسلمين الآراء المتداولة ، والله يهيء لهم من امرهم رشداً .

واستحكم حنين العود الى الوطن بكل مافيه من تأثير وسحر وكانت ازمة الامكنة في الطائرات السورية وصعوبة حجزها في جدة دليلاً على اضطرام حمى العود . وانك لتأنس في هذه الفترة شعوراً غريباً من الاسف والارتياح معاً . اما الاسف فلاختتام مناسك الحج والزيارة . واما الارتياح فلاختتام فترة من التجوال المبهظ والتخلص من هذه الوحشة التي وجدناها في مكة ومنى وجدة ، واستعادة الايناس في الوطن والاهل والاخوان وفي صباح يوم السبت الثامن عشر من ذي الحجة (السادس من شهر آب ١٩٥٥) ودعني رفقاء السفر مصطفى دريان ونور الباش وعقيلتيهما ، زينة سيدات لبنان رقة وادباً فاحسنوا التوديع لما لهم في نفسي من منزلة وقد تصدع قلبي لهذا الفراق الذي استقبلته

بصبر لايشوبه التصبر وجلد لايشوبه التجلد ، وودعنا المدينة في صمت وتزودنا بالنظرات الاخيرة من هاتيك الربوع الطاهرة الضاحكة ، وازدلفت السيارة الى المطار ، فاقلعت بنا الطائرة في الساعة السابعة ، وبلغنا جدة في ساعة ونصف الساعة ، وكانت الاراجيف قد كثرت وانا في المدينة المنورة بان السفر بالطائرة من جدة الى سورية ليس بالامر اليسير ، وان يمكن حجز الامكنة في الطائرات السورية قبل مضي ايام معدودات ، وما كدت اصل ميناء جدة الجوي حتى قصدت على الفور الى مدينة الحجاج فاستحصلت على تأشيرة الخروج من الاراضي الحجازية لقاء مبلغ اربعة ريالات سعودية يقبضها منك وكيل المطوف دون ان يحق لك الملاحظة او الاعتراض . وقفلت عائداً الى مكتب (الصبان) للتحري عن مواعيد سفر الطائرات وحجز مكان فيها فقيل لي بخشونة ان المحلات محجوزة لمدة اسبوع او يزيد ! فأخذتني الدهشة ، وكاد يتطرق اليأس اليّ لولا ان الضرورات تبيح المحظورات ، فاعتزمت القيام بتجربة سمعت في شأنها روايات مدهشة مضحكة معاً عن تفنن بعض المستخدمين في ابتزاز الملحقات غير المشروعة لتقديم مواعيد السفر حسب الاهواء والنزوات ،

فقدمت الى المستخدم المختص معاملة تأشيرة الخروج مصحوبة بجواز السفر الذي ينطوي على ورقة مالية من فئة عشرة ريالات سعودية ، وما كاد يلمحها حتى تناولها بمنتهى البراعة والخفة ، ولقيني بحفاوة بالغة ، واحاطني بهالة من التعظيم والتوقير ، واشار باسماً الى مقعد وثير ، بعد ان كان يبسط في لسانه بالصخب والوعيد والنذير ، وتمت التجربة اخيراً بنجاح منقطع النظير فانتقلنا الى المطار لنمكث في ارضه وننال قسطنا الاخير من العذاب والاعنات ، ونثرت الحقائب على الارض ووقفنا امامها صفاً كصف المسجونين كل ينتظر دوره وحسابه ، وعلى بركة الله افترشنا الارض والتحفنا بالسماء دون ان نذوق للنوم طعماً طوال تلك الليلة لازيز الطائرات الصاعدة والهابطة والدارجة على الارض بدون انقطاع . فقد اقيم مطار جدة في متسع هائل واستعداد كبير لاستقبال الطائرات ذات الاحجام والجنسيات المختلفة ، وفي صباح يوم الاحد هبطت في ركن من المطار طائرة سورية ضخمة تابعة لشركة الخطوط الجوية السورية (الكونك) ذات اربعة محركات وهي تحمل العلم السوري ، ومجهزة بمقاعد مريحة تنزلق الى الخلف في حالة استخدامها كسرير للنوم ، تسع ثمانية وستين راكباً . وانه لمنظر

يبعث الى الفخر والزهو ان ترى طائرات سورية صميمة تملأ جوانب الفضاء نشاطاً ، وتمـــلأ نفوسنا غبطـــة وفخراً.
فصعـــدنـــا اليها وبعد ان لزمنا مقاعدنا ، وقف احـــد مستخدمي الطيران ببابها ينادي الاسماء، ويستوثق من وجودنا، كأننا تلاميذ مدرسة يريد ان يثبت الحـاضر منهم ويعرف المتخلف ، كان يلفظ الاسماء والالقاب في تحريف يبلغ حد الشدة فيثير عاصفة من الدعابة والمرح ذكرتني بمعابثات الصبية لاساتذتهم في معاهد التعليم ، ولكن الرجل كان يتلقى هـذه المعابثـات بصبر واحتمال جديرين بالتقدير ،وانصرف عنا الرجل يستوفي الغائبين ويتصيدهم فيما يلوح له من المظان ، فلمـا استتم المدد تحركت الطائرة من قاعدتها وتعالت في اطباق الجو ، فخفقت قلوبنا فرحاً بالاوبة الى الوطن ، واخذت جدة تحت انظارنا تتضاءل وتتزايل وتراءت بين الفينة والفينه من خلال السحاب المهلهل ، السهول المتراميـــة تبعث الينـــا تحيـة الوداع ، وراحت تتناهبني شتى العواطف وانا اودع هذه الاراضي المقدسة التي ربما اراها للمرة الاخيرة ، فقد خلفت في تلك الديار ذكرى عزيزة هي ثمرة عقيدتي في الاسلام واليوم الآخر وهبطت الطائرة في دمشق في

تمام الساعة الرابعه عشرة حيث قضيت ليلة فيها ثم اقلعت بنـا طائرة اخرى في صباح الاثنين والعشرين من ذى الحجة (الثامن من شهر آب ١٩٥٥) وما زالت تحلــــق حتى اقبلت على حلب المحبوبة فهبطت في مطارهـا والحمد لله على نعمة الصحة وحسن التوفيق ، ومعي من الذكريات لهذه الرحلة المقدسة أثمن مايحرص عليه انسان.



